محمد الصديق

عطوف ودود:

إذا كان الرجل محبا للناس، أهلا لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها.

وإنما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء.

فلا يكفى أن يحب الناس ليحبوه. لأنه قد يحبهم وفى ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم فى حبه.

ولا يكفى أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها. فقد يكون محبا محبوبا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفى نزرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة، ولا تستقر عليه علاقة.

إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية، والذوق السليم، والخلق المتين، وقد كان محمد فى هذه الخصال جميعا مثلا عاليا بين صفوة خلق الله.

كان عطوفا يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام.

كان صبيا فى الثانية عشرة يوم سافر عمه، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره.

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى.

وليس فى سجل الموجة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين، فيلقاها هاتفا بها: أمى! أمى! ويفرض لها رداءه ويمس ثديها بيده.. كأنه يذكر ما لذلك الثدى عليه من جميل، ويعطيها من الإبل والشاء ما يغنيها فى السنة الجدباء.

ولقد وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى وقعة حنين وفيها عم له من يردوا السبى من نساء وأبناء، واشترى السبى ممن أبوا رده إلا بمال.

وحضنته فى طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب عن أمر بناته ورحمه، فقال لأصحابه: "من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن.." ما زال يناديها يا أمه كلما رآها وتحدث إليها، وربما رآها فى وقعة قتال تدعو الله وهى لا تدرى كيف تدعو بلكنتها الأعجمية، فلا تنسيه الوقعة الحاربة أن يصغى إليها ويعطف عليها.

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع فما نهر خادما ولا ضرب أحدا، وقال أنس: "خدمت النبى ﷺ عشر سنين، فما قال لى أف قط، ولا قال لشىء صنعته: لم صنعته؟.. ولا لشىء تركته: لم تركته؟.."

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا، صافى القلب إذا كره شيئا رؤى ذلك فى وجهه، وإذا رضى عرف من حوله رضاه.

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء، كافة ولم يقصره على ذوى الرحم من الناس من غير ذوى الرحم فكان يصغى الإناء للهرة لتشرب، وكان يواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه، وأوصى المسلمين "إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين" وكرر الوصاة بها أن "اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة".

وقال: "إن الله غفر لا مرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كان يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك"..

وقال فى هذا المعنى: "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض".

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء، فكانت له قصعة يقال لها الغراء، وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار، وكانت له ردع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول، وكان له سرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر، ومرآة تسمى المدلة، ومقراض يسمى الجامع، وقضيب يسمى الممشوق..

وفى تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الآفة معنى الألفة التى تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأن لها "شخصية" مقربة تميزها بين مثيلاتها، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب.

***

ذو ذوق سليم:

هذه العاطفة الإنسانية التى رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هى أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا ويتمثل - فيما يرجع إلى علاقات النبى بالناس - فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود..

"كان إذا لقيه أحد من أصحابه معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه. وإذا لقيه واحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينتزع منه.."

"وكان إذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده.."

"وكان أشد حياء من العذر فى خدرها، وأصبر الناس على أقذار الناس".. يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه: "من اطلع فى كتبا أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار".

ومن العاطفة الإنسانية والذوق السليم والأدب الكريم: سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس فى أجمل مرآه.

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق؟.. وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى رد الأمانات إلى أصحابها، وقد يكون فى ردها ما يبنهم إلى خروجه ويأخذ عليه فى سبيل النجاة، وهذا إلى اشتهاره بالأمانة فى صباه حتى سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغى لداعيها أمثال هذه الصفات.

***

أصدقاؤه المحبون:

كل هذه المزايا النفسية - بل بعض هذه المزايا النفسية - خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام، وأن يجعله محبا لمن حوله جديرا منها بأحسن حب وولاء. فلم يعرف فى تاريخ العظمة - لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء - إنسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس كالتى ظفر بها محمد، ولم يعرف عن إنسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير.

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذى خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهفة الشوف بعد يأس طويل، فلما وجب أن يختار بين الرجعة إلى آله وبين البقاء مع سيده "محمد" اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذى غمره بحبه ومواساته، وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدرى من هم ذووه.

وكان لا ينبغى من لازموه أن يلزموه فى الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم إياه بعد الممات فضعف مولاه قوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن فى ليلة

ونهاره، فلما سأله السيد العطوف يستفسره على حزبه وحشة عظيمة، فذكرت الآخرة حيث لا أرك هناك الأدنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أرك" ورويت هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون واكرباه، وهو يجيبهم: "واطرباه.. غد ألقى الأحبة محمدا وصحبه.!".

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الإنسان والإنسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه فى هذا الباب، فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى إليها خاصة أهلها وهى تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبى وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الأخوة وبنى الأعمام.

إلا أننا عنينا محبة الصداقة فى هذا الباب لأنها هى المحبة التى جعلت كثيرا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم إياه واطمئنانها إليه، فكانت سابقة فى قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان.

***

عظمة العظمات:

إن عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم فى نظر بنى الإنسان.

ولكن قد يقال إن استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان.. وهذا صحيح لا ريب فيه..

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة..

فأحدقت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة، وكل منهم ذو شأن فى عظمته تفوق عليه دولة وتنهض به أمة، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر، وعمر وخالد، وأسامة، وابن العاص، والزبير، وطلحة، وسائر الصحابة الأولين..

وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون. بل ربما أحاط الصالحون النبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة.

أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب الأصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز، وهى التى يقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى، وبين عمر وعثمان، وبين خالد ومعاذ، وبين أسامة وابن العاص: كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه.

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم، والحيلة والصراحة، والألمعية والاجتهاد، وحنكة السن وحمية الشباب.

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ومعجزة الإعجاز فى باب الصدقات وما استحقها محمد إلا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاءة ما يعطيها: مودة بمودة وصفاء، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الأقدار.

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعا بما هداهم إليهم من نور

العقل البصيرة، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الإنسان والعجماوات، نور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبى بكر "ما أحد أعظم يدا من أبى بكر: واسانى بنفسه وماله وانكحنى ابنته" وكما قال عن أبى بكر وعمر: "أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر" وكما قال عن على: "على أخى فى الدنيا والآخرة" وكما قال عن بعض أصحابه: "إن الله تعالى أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم: على منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان" وكما قال عن الأنصار جميعا وهو فى مرض الموت: "استوصوا بالأنصار خيرا. إنهم عيبتى التى أويت إليهم، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم" . . وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم.

على أننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف الإنسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشانئيه فضلا عن معاملته للأصفياء، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء. .

فما ثأر من أحد لأنه أساء فى شخصه، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوى به فسقط من يده على كره منه، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه أن يسالمه ويحاسنه ويتقى شره.

ومعاملته لعبد الله بن أبى الذى كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الإغضاء والصفح الجميل فقد عاهد ثم عاهد وغدر وعاش ما عاش يكيد النبى ﷺ فى سره ويمالى عليه أعداءه، وشاع أن النبى ﷺ قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له: يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك. فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر والده منى، وإنى لأخشى أن تأمره به

غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار".

فأبى النبى أن يقتله وأثر الرفق به، زواد فى إفضاله وإجماعه فكاف الولد خير مكافأة على خلوص نيته وإيثاره البر بدينه على البر بأبيه فأعطاه قميصه الطاهر يكفن أباه وصلى عليه ميتا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذى آذاه الإيذاء فذكر الآية: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]

فقال: "لو علم أنبى إن زدت على السبعين غفر له زدت".

***

تهمة باطلة:

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين!..

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسا بالموت كما يدين القاضى مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء؟..

ما أعجبتهم إذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذى استوجب القوبة كما يستوجب السبب النتيجة.

وأى ذنب؟.. ذنب لو قوبل به عير محمد لأرق فيه أنهاراً من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة.

فلا تذكر استهزاء المشركين به وإعانتهم إياه وإلقاءهم عليه القذر والحجارة، وائتمارهم بحياته حياة أصحابه وإخراجهم المسلمين من ديارهم إلى أقصى الديار، ولا نذكر العناد والإغاظة والاستثارة لغير جريرة إلا أنهم دعوا عباده الله والتحلى بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وترك الرذيلة.

لا نذكر شيئا من هذا فهو من أطول من أن يحصيه هذا الكتاب، ولكننا نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق فى كثير غيره، وذلك حادث الرسول الأربعين - وقيل السبعين - الذين قتلوا فى بئر معونة ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من ينشد علم القرآن والدين، غير مغضوب عليه.

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحى قتلوا فى قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش. إن بقى من أبناء القبيلة من يروى أبناء المقتلة، فقد يقال إن القوم لرحماء فى العقاب!..

ولم يكن بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء.

فلعلنا نختم الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير إليه غدر قبيلة هذيل بالرسل السنة الذين ذهبوا إليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن فى داره، لا إكراه له ولا بغى عليه. فقتلوا جميعا وجئ بأحدهم زيد بن الدثنة أسيراً ليباع.. فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئا: "انشد الله يا زيد. أتحب أن محمد الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك؟ "فأجابه زيد: "والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى...".

فصاح أبو سفيان دهشا: "ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمدا...".

من فعلة كهذه تعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء، ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة. أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم هم طبعوا على العداء والاعتداء.